تجليات الفضاء الصحراوي في الرواية العربية

أ/ جنات زراد
جامعة باجي مختار- عنابة-

الملخص:

سعى لفيف من الروائيين العرب بعدما تمكنوا من ناصية الفن الروائي إلى التخلص من عقدة الانبهار وتجاوز مرحلة الغواية الفنية والدهشة الجمالية إلى قطع وشائج النسب الوهمية مع الفن الروائي الغربي الذي يجسد ويترجم ثقافة وفكر المجتمع الغربي أكثر منه المجتمع العربي، ولذلك كان لزاما على الكتاب العرب البحث عن بديل لتلك الثقافة الدخيلة ومعاداة تقاليد الفن الروائي الغربي والالتزام بفن روائي يترجم الخصوصية القومية العربية وعمق الانتماء إلى المجتمع العربي.

وقد مثل المكان الصحراوي بامتياز ذلك البديل المخلّص الذي أراح الروائيين العرب من عناء اختيار المكان الروائي الذي يحمل ملامح عربية خالصة ويمتلك خصوصية الهوية، فوجدوا فيه مصدر إلهام لأفكارهم وتوجهاتهم ومرتعا خصبا لإنشاء التخييل الروائي، كما أن الروايات التي اتخذت فضاء الصحراء موضوعا لها قد أحرزت على تقدم فني كبير بوصفها روايات عربية خالصة شكلا ومضمونا، وهذا ما يصبو إليه الكاتب والمتلقي العربي على حدّ السواء.

Résumé:

Recherché par un groupe de romanciers arabes après qu'ils ont réussi à accaparer Art romancier de se débarrasser de la fascination de noeud et à surmonter la phase de séduction technique et surprenante esthétique à couper les liens niveaux fantômes avec l'art romancier occidental qui capte et traduit la culture et de l'idéologie de la société occidentale plutôt que de la communauté arabe, de sorte qu'il était titulaire sur les écrivains arabes Trouver une alternative à ceux exotique culture et les traditions de l'art anti-occidentaux romancier et engagement à l'art de la fiction traduit la vie privée de nationalisme arabe et la profondeur de l'appartenance à la communauté arabe.

Le désert comme lieu par excellence cette alternative Sauveur qui reposait romanciers arabes de la peine de choisir le lieu romancier qui détient un Arabe et possède les caractéristiques de la vie privée de l'identité pure, et a trouvé en elle une source d'inspiration pour leurs pensées et leurs attitudes et de créer un terrain fertile pour l'imagination romancier.

Les romans que l'espace du désert pris leur thème a fait un progrès significatif en tant que technicien romans arabes purs en forme et le fond, et que les aspirations de l'écrivain et le récepteur arabe ressemblent.

مقدمة:

ارتبط الحديث عن الصحراء في حقل الأدب العربي مدة من الزمن بالشعر والشعراء، وحظيت بأهمية كبيرة خاصة بالنسبة للأدب العربي القديم باعتبارها الموطن الأول للإنسان العربي؛ لكن مع تطور الأدب بمختلف فنونه خاصة في العصر الحديث ظهرت أشكال تعبيرية كتابية أخرى مختلفة وأهمها الرواية، التي ظهرت متأخرة مع بداية القرن العشرين، إذ ظهرت كفن جديد له لغة خاصة به دخلت في تركيبها عناصر متعددة غير موجودة في أي جنس أدبي آخر،"فالرواية ينسجها التاريخ والجغرافيا والعلاقات الاجتماعية والعادات والتقاليد الأخلاقيـــة والأدبية والنحوية والسياسية والاقتصادية"(1)، فهي تتكون من شبكة معقدة من المعطيات والأحداث في محاولة منها لرصد الواقع أو بناء عالم بديل يتحقق فيه ما لم يستطعه الواقع أو ما ارتضى السكوت عنه.

1- **توجه الرواية العربية إلى الصحراء:** من المعروف أن الرواية العربية قد اتخذت في بداية نشأتها وتطورها مسارين متضادين ومتلازمين، نشأ بينهما صراع حول البحث عن طرق جديدة في التعبير وبين الصلة مع الماضي والتراث، هذا الصراع أوقع الروائيين العرب في حيرة من أمرهم، هل يتبنون النموذج الغربي الأجنبي في الكتابة وعلى رأسها الرواية الفرنسية الجديدة؟ أم هل عليهم العودة إلى أشكال السرد التراثية وتطعيم الشكل الروائي الحديث ببعض عناصر هذا التراث؟، حيث عمد لفيف من الأدباء في خطوة أولى إلى الالتفات للتراث العربي ونبعه الأصيل يعبون منه بشغف ونهم، حجتهم في ذلك التمسك بالأصالة والهوية العربية في سعيهم لاستنهاض المتن الروائي من الموروث الرسمي الشعبي.

فاتّكأت الرواية في هذه الحالة على مبدأي الحكي والتشويق بصفتهما العناصر الأولية التي يعتمد عليهما السرد، وهما من خصائص طريقة الحكي القديم، وأصبحت الرواية بهذا الشكل لا تقوم إلا من خلال توسلهما واستثمارهما في تجاربها الإبداعية. وبهذا الشكل "تستعيد الكتابة الروائية العربية إرثها القديم وتتعلم من ألف ليلة ومقامات بديع الزمان الهمذاني ومقامات الحريري وأخبار العرب"(2)، على نحو ما كتب المويلحي في "حديث عيسى بن هشام" وغيره، لتدخل الرواية بذلك مرحلة جديدة من مراحل تطورها خلال فترة زمنية قصيرة، وتعيش بعد ذلك مرحلة التجريب التي قادتها إلى الاعتماد بصفة كلية على العناصر الحميمة في السرد وخاصة على عنصري الحكاية وعنصر التاريخ حيث يستدعي الروائي التاريخ وعناصره إلى وعي الرواية ووعي كتابتها،على اعتبار أن الرواية جزء من التاريخ

"وهي تعمل على التاريخ وبعناصره الصغيرة: تاريخ الوعي الفردي السيكولوجي الدقيق، تاريخ الهواجس الداخلية، تاريخ الفئات والمجموعات الصغيرة في المجتمعات، كما تعمل على عناصره الكبيرة: تاريخ الشعوب والأعراق والثورات والتحولات الكبرى"(3).

والجدير بالذكر أن سيطرة الجوانب التراثية والتاريخية على الرواية أغفلت الاهتمام بالفضاء الروائي ونظرت إليه بوصفه إطارا وحاضنا ساكنًا لابد من وجوده لتحريك بقية العناصر كالشخصيات والزمن والحدث، غير أن الفضاء الروائي لا يمكن أن يظل منعزلا عن باقي مكونات السرد السالفة الذكر، وعدم النظر إليه في تفاعله مع هذه المكونات يجعل التأويل قاصرا عن إدراك الأبعاد الدلالية التي ترمي إليها النصوص الروائية .

وبعد أن ترسّخت الرواية في تقاليد وثقافة المجتمع العربي، وأصابت قدرا من النضج الفني متجاوزة بذلك مرحلة الغواية الفنية والدهشة الجمالية، تأكدت أن زواجها من الفن الروائي الغربي كان زواج متعة، فعملت على التخلص من قبضته وقطع الصلة التي كانت تربطها به وسعت إلى تحقيق منجز روائي عربي أصيل يحمل سمات الهوية العربية، وكان ذلك بإيعاز وتشجيع من تجربة أمريكا اللاتينية، حيث تمكنت الرواية اللاتينية من شق طريقها نحو العالمية بهويتها الحقيقية وخصوصيتها بعيدا عن سياق الرواية الأوربية.

وعليه فقد استحال النص الروائي العربي إلى بناء من القيم الثقافية والاجتماعية والسياسية والحضارية يشيّد بواسطة اللغة، إذ أصبحت تعبير عن حدّة الأزمات المصيرية التي تواجه الإنسان العربي "فالرواية الجديدة بنية فنية دالة على الاحتجاج العنيف، الرفض لكل ما هو متداول ومألوف"(4)، إذ لم تعد المدينة الرحم الفني الخصب الذي أنجب أشكالا روائية متعددة ورغم ارتباطها بالنشأة الأولى للرواية إلا أنها تحولت إلى هامش في إنتاج النص الجديد، خاصة وأن ارتباط الرواية بالمدينة يحيل على تأثر البناء الروائي بالطبقية الاجتماعية والطبقة البرجوازية بصفة خاصة حسب التصوّر الجولدماني "حيث استخدم البعض البنيوية التكوينية في ربط المدينة بالنص جماليا، وإن كان ذلك المنهج يحول إلى بناء اجتماعي أكثر منه بناء جماليا "(5)، وباعتبار المكان أحد أهم العناصر المكونة للرواية التي خضعت للتطور من حيث العرض والبناء وكذا الوظيفة والقيمة، فقد امتثل هو أيضا للتطور الذي خضعت له الرواية، ولم يعد مجرد إطار خلفي لتأطير المادة الحكائية كما كان في السابق؛ حيث كان محددا جغرافيا تطفو على سطحه ملامح واقعية وتاريخيا، لكنه أصبح في الرواية الحديثة بؤرة إشعاع تشعّ المادة الحكائية من أركيولوجيا اللغة ومن أنساق المتن الحكائي، وامتزج مع

شخصية الإنسان العربي الذي يتلوّع في متاهات الواقع الجديد المؤلم، وغدا جزء من ذاته المسحوقة التي تنشد العالم الأفضل وأصبح عنصرا متغيّرا بتغيّر الإنسان وطبيعة الحياة.

وهكذا فقد توجّهت الرواية العربية للبحث عن عوالم روائية شديدة الالتصاق بالثقافة واللغة العربيتين وحوّلت بعض هوامش الرّواية إلى أماكن أساسية مركزية تأخذ دور البطولة في أحيان كثيرة، فاتجهت الأنظار إلى فضاء الصحراء باعتباره بكرا روائيا وفضاء جديدا يضفي حيوية وروح جديدة على الرواية بعد تبرّم الأدباء من الأماكن الضيقة والمألوفة.

ونشير في هذا الصدد إلى أن بواكير التأليف الروائي العربي لم تعرف أعمالا روائية اتّخذت من فضاء الصحراء مسرحا لأحداثها مثلما أشرنا إلى ذلك، ورغم هذا فقد تسللت إلى بعض الأعمال بأشكال مختلفة "كان أبرزها استعارتها لتصوير بعض النزعات المصطبغة ببعض ما ترسب في نفوس الكتاب العرب من ولع خاص سكبته الرومانسية الغربية على الطبيعة، وعلى المبالغة في الاحتفاء بالأحاسيس والعواطف واستعارة الطبيعة لمداعبة هذه الانفعالات"(6)، فكانت الصحراء الحضن الدافئ الذي فتح ذراعيه لاحتضان هؤلاء المبدعين الذين يسعون إلى تأكيد الصلات القوية التي تربطهم بالطبيعة العذراء والتي كانوا في غفلة عنها ردحا من الزمن، فقد كانوا ينظرون إليها على أنها فضاء عصيا على التشكيل الفني والجمالي "فلم يجرؤ غير الشعراء في محاولة أحكام توثيق لجامها،الذي يتأبى على الترويض على المتأخرين أيضا من كتاب الرواية"(7)، وذلك أن معظم كتاب الرواية في بداياتهم اتجهوا إلى كتابة رواية المدينة ــ كما أسلفنا الذكر ــ واتخذوا من مشاكلها وتعقيداتها على جميع الأصعدة مادة دسمة لمتونهم الروائية، والبعض الآخر اختار الريف مكانا لاحتضان أحداث روايته، فالرواية التي سعت إلى الأرياف استأثرتها مشاكل الفلاحين وعلاقتهم بالأرض والإقطاع وما يلقون على يديه من عناء.

وهكذا تُرك هذا الفضاء وحيدا تعزف فوق أرضه الرياح سمفونية الفراق، غارقا في الصمت والخشوع، يصلي منفردا للفراغ والأبدية؛ ولكن الحنين إليها ظل يراود بعض الأدباء طوال حياتهم فزرعوا أشواقهم إليها في نفوس الأجيال اللّاحقة من سليلي هذا الفضاء، الذين سعوا إلى لمّ شتاته الممزقة من جديد ومد جسور التواصل معه عن طريق الفن والإبداع، خاصة وأن "التشكيل سبيل الفنان إلى إعادة ترتيب الأوضاع في عالمه النفسي، إلى إعادة بناء العلاقات في العالم الواقعي للوصول إلى واقع نفسي، روحي، واجتماعي أكثر جمالا وتناغما وانسجاما"(8)، وإن كان هذا التناغم والانسجام نسبي، فالأديب المبدع ابن الصحراء ولد على أديمها وترعرع بين أحضانها

وتشرّب ثقافتها أعلم بتفاصيلها وأحداثها وأقرب إليها من المبدع الذي ولد عاش بعيدا عنها، لقد ظلت الصحراء مدة طويلة من الزمن مرتبطة بالجذب والموات بوصفها المكان الأقل ملائمة لحياة معظم الكائنات الحية، إنها الفضاء القلق، الفضاء المستحيل، إنها الطبيعة المعادية لحياة البشر، لذلك ظلت تقبع في دهاليز الصمت والظلام، تسكن عالم الأساطير والخرافات والحكايات العجيبة، باعتبارها المكان الأنسب لاحتضان هذا النوع من الأدب.

ولكن المتأمل في خطاب الرواية العربية الحديثة الخاص بفضاء الصحراء يلاحظ اختلافا كبيرا عن رواية المدينة، وهذا الاختلاف نابع من خصوصية الصحراء نفسها، فهي سر خفي وطلسم لا يستطيع فك شفراته "ولا يحضى بامتلاك رموزه إلا مجموعة من الأدباء والكتاب، الذين هم سليلو تلك المناطق من العالم العربي الذي شكلت فيه الصحراء جزء كبيرا ومهما من الجغرافيا العامة. إضافة إلى تميزها بتراث ثقافي ورمزي من نوعية خاصة ترفض كل ثقافة جديدة طارئة تحاول التغيير أو تسعى إليه "[9]، لأن ثقافة الصحراء ثقافة قارة في عرف أبنائها وكل فرد يسعى نحو تطويرها أو استبدالها بثقافة وافدة يعد فردا منبوذا مغضوبا عليه من قبل هذا المجتمع، فللصحراء قوانينها الخاصة، يؤمن بها أهلها ويخلصون لها ويدينون لها بالطاعة والتبجيل، مثلما للمدينة كذلك أعرافها وقوانينها الخاصة بها، فعند انتقال "روائي الصحراء باعتبارهم من رجال "مجتمع الضرورة" إلى "مجتمع الترف" أحسّوا بالفرق بين المجتمعين حيث في الصحراء تأتي المفارقة من المكان والطبيعة وفي المدينة تأتي من الإنسان والثقافة "[10]، فالإحساس بالتمايز والتباين هو السمة الطاغية في رواية الصحراء، سواء أكانت من الإبداعات المتعلقة بصحراء شبه الجزيرة العربية أم الإبداعات الخاصة بصحراء المغرب العربي.

لقد استطاعت الرواية العربية بعد أن تخطّت مرحلة المراهقة والتمرين وتطلّعت إلى شيء من الاتزان والنضج الفني واتّخذت لها مكانة بين الفنون الأدبية الحديثة أن تشق طريقها نحو العالمية، ووجدت في الفضاء الصحراوي ضالتها المنشودة، باعتبارها مكانا عربيا خالصا يمنح الرواية العربية خصوصية وهوية، بعيدا عن النمط العربي المتوارث الذي تم احتذاؤه في بداية التأليف الروائي العربي من ناحية الشكل والمضمون، كما أنها "كانت لهم هوّية سرديّة رغم تكوّنها في ظل تطوّر صناعي سريع، أخذ يفرغ العالم الإنساني المعاصر من القيم الروحية ويقوده إلى الدخول في صراع هو ليس بمنأى عنه ولكنه لا يتمنى أن يكون جزء منه، رغم ذلك لزم عليه أن يتّخذ موقع الوسط ليصل بمشكلة عالم مندثر وقضيّة خاصّة إلى جمهور عام

من جهة وقراء نموذجين من جهة أخرى، حيث فشلت وسائل أخرى في إيصالها"(11).

إذن لقد تغير مدلول الصحراء العربية الجغرافية واتجهت إليها أنظار الروائيين الذين أرادوا إنجاز رواية بملامح شرقيه عربية أصيلة، فاكتسحت بعنف خطاباتهم الروائية وأصبحت بالنسبة إليهم بمثابة المنجم الذهبي الذي صاغوا منه حلقات جديدة أضافوها إلى سلسلة الإبداع، وتحوّلت من مكان جغرافي ساذج وبسيط وقاحل إلى فكر عميق غني برؤى وأفكار مختلفة، وقناة يمرّرون عبرها رسائل مبطّنة بإيديولوجيات لا حصر لها، وبانجذابهم إلى هذا الفضاء أرادوا أن يعبّروا عن فرحة الابن الضال الذي عاد إلى حضن أمه، ولهًا، مشتاقا، طائعا، وكله شوق وحنين إلى وطن قد همّش،وترك جانبا مقصيا لا يسأل عنه أحد، فكانت الصحراء رمز الانبعاث والانتماء والتجدد، وبالمقابل باحت لهم بالكثير من أسرارها الخاصة التي تجلّت في متونهم الإبداعية .

وهكذا توجهت الرواية العربية المعاصرة في عدد من النماذج المتقدمة فنيّا وفكريّا إلى الصحراء، وكان طليعة نتاج هذا التوجه أن المكان الرّوائي الصحراوي ــ خصوصا ــ تجاوز سكونيّته السالبة المعهودة في الأنماط الروائية التقليدية، وانضمّ إلى العناصر الحركية الفاعلة في تكوين بنية الرواية، ومنح عالمها الداخلي مزيدا من التنامي والحيوية والجماليات الإضافية الخاصّة "(12).

ونذكر أن توجه الرواية العربية إلى الصحراء سبقه توجه فعلي ،واقعي للبشر بفعل الانتقال إلى مواقع النشاط الاقتصادي وتمركز الثروات وهذا خلال النصف الثاني من القرن العشرين، حيث كان لاكتشاف البترول والثروات المخبوءة في باطنها أثر كبير في تحسين صورتها والتقليل من الاندفاع إلى معاداتها ورفضها بوصفها مكانا قابلا للاستثمار الاقتصادي، هذه التحولات الاقتصادية ساهمت في ظهور مجموعة من الروايات اهتمت بالمكان اهتماما محوريا وعكست التغيير الجذري الذي خلخل المكان وبشره، ومكّنت الروائي العربي من الفوز بمكان جديد يزيد من إثراء خياله الفني ويستفيد من الجماليات الواقعية التي يتوفر عليها ويستثمرها في بناء جماليات الرواية، وبذلك يتخلص من همّ التأصيل للرواية العربية، وخلق رواية عربية خالصة تستمد نسغها من التراث العربي الزاخر، أي"الوصول إلى إنتاج رواية عربية لا يخطئ من يقرأها في اكتشاف هويتها ومزاياها وطريقتها الخاصة في القص"(13).

2 ــ تجليات الصحراء في الرواية العربية:

1 ــ مصر: عمد الروائيون الرواد في مصر إلى استثمار فضاء الصحراء في إبداعاتهم الروائية لترجمة بعض أفكارهم ورؤاهم الخاصة، بدأت "الروايات العربية الأولى توجها نحو الصحراء باستحياء في البداية وتلميحات عابرة، كما في رواية الاعتراف لعبد الرحمان شكري التي نشرها في الجريدة ما بين 1909 و1913، ثم عاد وجمعها في كتاب أصدره عام 1916 باسم قصة نفس، ورواية إبراهيم الكاتب1931م للمازني، ورواية دعاء الكروان 1934 لطه حسين"[14]، فالمازني نفى إليه بطل رواية "إبراهيم الكاتب" لتكون الملجأ والملاذ الذي يجد فيه الراحة النفسية التي افتقدها، حيث يقول: " فقد صارت نفسه فيما يرى كهذه الصحراء، تربة بكر ! تغزوها الشمس ولكن خيرها دفين فيها، فظاهرها مجدب ووجهها أجرد ولا علم لأحد بما في جوفها وبما كان يمكن أن يخرج منها "[15]، والشيء نفسه بالنسبة لطه حسين "في دعاء الكروان" حيث استخدمها كشاهد على جريمة قتل من أجل الشرف فقد شهدت مصرع "هنادي" أخت البطلة "آمنة" لتعمق من فضاعة الحس المأساوي في الرواية.

كما استعارها كتاب معاصرون لأداء وظائف تخدم هدفهم الروائي كالكاتب "فتحي غانم" الذي استعارها في أواخر رواياته "زينب والعرش" لتسيير بعض كوابيس بطلته زينب، متناولا من الصحراء ما يلائم عناصر الكابوس"[16]، فالبطلة "زينب" كانت تعاني من عقد نفسية متعددة فتتتابعها كوابيس مزعجة كل ليلة تقريبا، وفي أحد المرات رأت نفسها تائهة وضائعة في الصحراء، تقول زينب: "أنا في الصحراء وحدي ...الصحراء واسعة، الشمس محرقة، ... الجو غريب، الشمس ليست في السماء. أمامي وفوقي سواد، أريد أن أصل إلى شيء لا أعرفه... أنا تائهة مذعورة"[17].

هذا إلى جانب عدد من الروايات الأخرى كرواية "الزويل" لــ "جمال الغيطاني" التي تجري أحداثها في منطقة صحراوية بالقرب من الحدود السودانية، وكذا رواية "قدر الغرف المقبضة" للكاتب "عبد الحكيم قاسم"، إذ لم تحضر الصحراء في سياق الرواية إلا من خلال إشارات قليلة أثناء وجود بطل الرواية في سجن يقع في قلب الصحراء، وكذلك رواية "شرق النخيل" لــ"بهاء طاهر" التي تقع أحداثها في قرية صعيدية على تخوم الصحراء، تدور حول صراع أسرتين حول الأرض، وما ينجر عن هذا الصراع من قضايا للثأر وغيرها من مشاكل، والصراع يدور خارج نطاق الصحراء، فحضور الصحراء مرتبط بالهواجس النفسية ومخاوف الشخصيات.

والملاحظ أن معظم الروايات المصرية التي ذكرناها لا تمنح البطولة للمكان الصحراوي، ولا تعبرعن رواية الصحراء بكل ما تحمل من قيم وتطلعات ورؤى خاصة تميّزها عن غيرها من النصـــــوص الروائية، فليس كل ضجـــــر لراو ما يعبر صحراء فـــــي سيارته أو معاناة البطل مـــــن الغبار، أو التذمر من القحط والحرارة هو معاناة من الصحراء، كما لا تعني أن النص – بالحقيقة – ينتمي إلى الصحراء مثلما ذهبت إليه الباحثة "ميرال الطحاوي" في دراستها عن رواية الصحراء، ونحن نؤيد رأيها خاصة إذا اعتبرنا أن النص الصحراوي كمعطى حقيقي أنثروبولوجي وسوسيولوجي وتاريخي وإنساني يؤكد على وجود سيمات صحراوية ينضح بها المكان وتتلون بها ثقافة المجتمع، وتعكس تفاعل الإنسان مع الظروف الجغرافـــية وتكييف حياته معها وما تنتجه من قيم اجتماعية وإنسانية وتصورات فكرية خاصة للعالم المحيط به، وما يطرأ عليه من مستجدات ومدى قدرة المكان وناســـه على مواجـــهة هذه المستجـــدات وإخضاعها لسلطتهم، كما أن معظم هذه الروايات لا تعدو كونها إرهاصات للرواية الصحراوية والتي تلتقي معها عدد من الروايات في أقطار عربية مجاورة، سنأتي على ذكرها فيما يلي.

2 ــ **فلسطين**: يبرز من فلسطين اسم الروائي "غسان كنفاني" في روايتيه "رجال في الشمس" و"ما تبقى لكم" ففي روايته الأولى التي قالت عنها "ميرال الطحاوي": "لا يمكن اعتبار رجال في الشمس لغسان كنفاني التي تحكي عبور ثلاث فلسطينيين في شاحنة عبر الصحراء وموتهم في الخزان بفعل الشمس رواية صحراوية، لأن القاطرة تجتاز بهم الصحراء"[(18)]، حيث ترى أن هذه الرواية تعبّر عن رؤية واقعية لتجربة الاغتـــــراب والعزلة والهجرة والبحث عن العمل في أماكن أخرى بعيدا عن الوطن، بينما يخالفها "صلاح صالح" فيما ذهبت إليه في كتابه "الرواية العربية والصحراء" إذ يرى أن الصحراء "قد انبسطت في جميع الجهات لتحتضن الأحداث خارج أطر الاحتضان السلبي، فالصحراء خرجت من سكونها وشاركت في صنع الأحداث، بل صنعت أكثرها فجائعية (الموت الجماعي داخل الخزان)...فالرواية تنثر الصحراء في كل مكان وتحصرها في ارتباطها بالهلاك و تستعير من أتونها ولهبها كل الصور التي ترتبط بالعناء والتعب والموت "[(19)]، فالطريق الذي يقطعه الرجال بين فلسطين والكويت هو بمثابة السّراط الذي قد يوصلهم إلى الجنة ونعيمها إذا تمكنو من اجتيازه وإذا أخفقوا فقد يسقطون في النار وجحيمها، قال أبو الخيزران:"إن هذه الكيلومترات المئة وخمسين أشبهها بيني وبين نفسي بالسّراط الذي وعد الله خلقه أن يسيروا عليه قبل أن يجري توزيعهم

بين الجنة والنار...فمن سقط عن السّراط ذهب إلى النار ومن اجتازه وصل الجنة"[20].

3 ـ **الشام:** إن روايتا "كنفاني" تصوران لنا جزء من صحراء بادية الشام الواسعة وطرقها المؤدية إلى الأردن والعراق والكويت وكذا صحراء النقب الفلسطينية، كما كانت صحاري الشام منطلقا لمطامح روايات أخرى اعتمدت الصحراء كفضاء دارت فوق أرضها أحداث مختلفة وليست كطريق أو معبر لفضاءات أخرى كروايـــتي "فارس زرزور" "الحفـــاة" و"خفي حنين" 1971 ورواية "المذنبون" ورواية "حارة البدو" 1980 "لإبراهيم الخليل"، و"الطاحونة السوداء" "لبندر عبد الحميد"، "البحث عن سماوات جديدة" 1989 لـــ"ياسين عبد اللطيف"[21].

ففي رواية "حارة البدو" لـــ "إبراهيم الخليل" تنطلق الأحداث من الكويت وصولا إلى مدينة الرقة الواقعة في البادية السورية، حيث يصور فيها الكاتب الحالة المزرية التي تعيشها الحارات الشعبية والمشاكل الاجتماعية التي تتخبط فيها، حيث ينحصر ذكر الصحراء في الطريق الرابط بين هذه البلدة والكويت فـــ "هذا العراء القاحل يدخل الأعصاب كالإبر واخزا أصم، فيه وحشة فتاكة، توقظ كل مشاعر القسوة النائمة منذ عصور قديم"[22]، هذه الروايات التي تصور في جوانب كثيرة منها الطبيعية القاحلة لبعض المناطق الشبه صحراوية في سوريا ومدى تأثير الجفاف الشديد على حياة الناس وانتشار الفقر والعوز بين ربوعها، وهذه المناطق في الأصل كانت عبارة عن مناطق زراعية ثم تحوّلت بفعل انقطاع المطر لعدة سنوات إلى صحاري قاحلة وجحيم لا يطاق وعذاب مقيم، وهي لا تعكس حقيقة الرواية الصحراوية بخصائصها ومميزاتها ذلك أن البيئة السورية تكاد تنعدم فيها الصحاري النموذجية.

4 ـ **العراق:** أما الصحراء العراقية فقد تناولها الروائي العراقي "جاسم الهاشمي" في روايته "أم إشين" وهي قرية صحراوية بائسة تقع جنوب العراقّ تمتثل للطبيعة امتثالا مباشرا، فإذا أقبل الربيع وأزهرت الصحراء المالحة واخضرت سنابل القمح، وجرى الماء في سيقان النباتات، تضحك الحياة وتزهر قلوب الناس بالحب، أما إذا جاء الشتاء واستحكم الجفاف فإن الطبيعة تقسوا وتتحول إلى ضبع كريه مكشر عن أنيابه، فيكثر الموت من شدة الجوع وتمتلئ دروب القرية بحيث يدرك الناس ضرورة تطهير الأرض منها"[23]، فهذه الرواية كما يظهر من قول الدكتور "محمد حسن عبد الله" تعالج مشاكل الزراعة في المناطق الشبه صحراوية والتي يعد الجفاف أحد أهم مشاكلها .

ويطرح الروائي الفلسطيني"جبرا ابراهيم جبرا" في روايته "البحث عن وليد مسعود" فكرة الضياع والتشتت والاغتراب الروحي، فقد استعار الكاتب الصحراء العراقية وطرقاتها لتأكيد هذه الفكرة، غير أن هذه الرواية لم تعكس حقيقة الصحراء العراقية، ولم تعنى بتصويرها كمكان، فالمكان المحوري أو الأمكنة المحورية كانت في بغداد والمنازل والبيوت في المدن الأخرى"(24)، كما أن جزء كبير من الأحداث جرت في الطرقات الصحراوية التي تصل بين المدن وليست في الصحراء في حد ذاتها، رغم أنه ورد ذكر بعض المدن العراقية الصحراوية كالفلوجة والرمادي وبعقوبة والرطبة حيث تؤكد حبيبته "وصال" أنه "كان يسوق على غير هدى مبتعدا عن المدينة في طريقنا إلى الصحراء أمامنا الفلوجة، فالرمادي، فالصحراء"(25)، وأكدت للجميع أن السلطات الأردنية تعنتت ومنعته من الرحيل ورفضت "السماح بالعبور فأعيد إلى الرطبة ثم أعادوه إلى الصحراء ثم أعيد إلى الرطبة"(26).

5 ـــ **الأردن:** ويطالعنا من الأردن "مؤنس الرزاز" بروايته "متاهة الأعراب في ناطحات السراب" فتحضر الصحراء باتساعها اللامحدود، وصمتها المفزع وفراغها المزعج مما يشيع جوا من الرهبة والخوف، ويزرع في النفس كثيرا من الشؤم والتبرم والملل: "رأيت الصحراء تهرول بصمت كئيب نحو الأفق البعيد. لا أثر لقافلة ولا شبح، ولا ظل، ولا سحابة، ولا نذير، ولا بشير، الصمت الموحش يملأ الكون بحضوره المبهم"(27)، كما عالج في هذه الرواية ظاهرة السّراب المنتشرة في الصحراء "وحمّلها دلالات سياسية وتاريخية وحضارية، وعمّم ذلك على جميع الصحاري العربية "(28)، حيث تزدحم الرواية بالأمكنة السرابية، فكل شيء في المنطقة العربية عبارة عن سراب من المكان إلى البشر وما يعتقدون فيه.

6 ـــ **لبنان: وتعبر** الكاتبة اللبنانية "حنان الشيخ" في روايتها "مسك الغزال" عن "رؤية واقعية لتجربة الاغتراب والعزلة القيمية بين أهل البادية وأهل الحضر"(29)، من خلال عرضها لتجربة أربع بنات من جنسيات مختلفة ذهبن للعمل في الصحراء، وكل واحدة من هنّ دفعت بها ظروف معينة من أجل البحث عن الاستقرار المادي والنفسي، حيث لا تتطرق هذه الرواية إلى المكان الصحراوي بشكل أساسي لكنها تسعى إلى تبيان تأثيره السلبي على حياة الأبطال من خلال طرحها ثنائية (الانفصال والاتصال) مع المكان، ومن خلالها مع جميع مناحي الحياة في هذا الفضاء القاسي العنيد، من خلال شخصية "سهى" الوافدة العربية التي لم تستسغ هذه الصحراء التي قضت على طموحها وسلبتها إرادة الحياة، فقد هالتها طبيعة الصحراء والمعاناة الشديدة التي يكابدها كل من يعيش على أرضها، فقد أدركت مثل غيرها أن المنفعة هي التي جعلت الناس يقاومون

طبيعتها ويتحمّلون مشاقها، بل يتهافتون عليها لأجل المال الذي يدره عليهم ما احتوته في باطنها من ذهب أسود(النفط)، حيث تقول: "الطائرات تحط محملة بالبشر وحضاراتهم المختلفة ولا مجال لرفضهم، إن هؤلاء هم الذين يعرفون أسرار الصحراء كأنهم خلقوا في بطنها، ويعرفون أين السائل الأسود وكيف يحولونه إلى مقابض وحنفيات ذهب في الحمامات"[(30)].

7 ــ **الصحراء المغاربية:** هناك مفارقـــــة واضحـــــة بين الاتّساع الهائل لصحراء المغرب العربي أو الصحراء الإفريقية الكبرى وندرة الروايات التي تناولتها كمكان مركزي سيّرت فيه أحداثها، فقد اهتمّت الرواية المغاربية بصفة عامة بقضايا الكفاح المسلّح ضدّ الوجود الاستعماري في بلاده خاصة الجزائر والمغرب وتونس، هذه الدول التي عانت من هيمنة الاستعمار الفرنسي ردحا من الزمن ثم تحولت بعد ذلك إلى الاهتمام بالقضايا التي مسّت التحولات الكبرى للمجتمع .

أ ــ **الجزائر:** اتجهت الرواية الجزائرية بعد الاستقلال إلى مواكبة الفكر الاشتراكي الذي انتهجته البلاد كأسلوب سياسي واجتماعي واقتصادي من أجل الدفع بعجلة التنمية إلى الأمام، "ولعلّ إبراز اهتمام الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية في بدايتها إنّما عبّرت عن واقع المجتمع الجزائري الجديد انطلاقا من مواقع ماضية، وبذلك هيمنت فكرة الهدم ثم البناء على جل كتابات الطاهر وطّار وعبد الحميد بن هدوقة ....وغيرهم"[(31)]، ورغم ذلك فقد ظهرت فيما بعد بعض الروايات ذات صلة بالصحراء رغم قلّتها فقد كتب "عبد الحميد بن هدّوقة" "ريح الجنوب" و"نهاية الأمس"، حيث تجري أحداث هاتان الروايتان في الريف الجزائري في مناطق شبه صحراوية، وقد حملتنا إشارات ضئيلة إلى الصحراء، فقد ركّزت رواية "ريح الجنوب" على الريح الصحراوية القبلي التي تهب على القرية فتحوّلها إلى صحراء حقيقية خاصة مع شحّ السماء وانقطاع المطر، فتتلف المحاصيل الزراعية وتلحق خسائر فادحة بأهلها، يقول الراوي: "أصبحت القرية كئيبة حزينة تغطي سماءها زوابع الغبار وتتصارخ في جنباتها رياح هوج، ....أصبحت الوجوه يجللها الغبار فإذا هي تبدو دكناء قانطة، وأصبح الذين يملكون شيئا حيارى ممّا حل بفلاحتهم من خسائر، والذين لا يملكون شيء صرعى من أزيز القبلي"[(32)].

وفي السياق نفسه نجد بعض الكتاب الجزائريين المعاصرين الذين تناولوا الصحراء في إبداعاتهم الروائية فقد " كتب "الحبيب السائح" "تلك المحبة " و" تماسخت" عن صحراء الجزائر، التي كتب عنها "رشيد بوجدرة "رواية " تيميمون " وهي منطقة في الصحراء، و"إبراهيم سعدي" في روايته

"بحثا عن آمال الغبريني" والمغتربة "مليكة مقدم" التي كتبت روايتها الممنوعة وهي في غير المكان وفي غير الزمان وهي بعنوان الممنوعة"[33].

ب ــ تونس: بالنسبة لتونس فإننا نلمس كذلك ندرة في الروايات التي لها علاقة بالصحراء أهمّها نص"محمود المسعدي" "حدّث أبو هريرة قال..... " وقد ابتعد هذا العمل عن الأشكال الروائية المألوفة وبالتالي جواز انضمامه إلى جنس أدبي آخر، فهذه الأحاديث عبارة عن نصوص متراكبة مختلفة تنزع إلى شيء من التفلسف لا تربط بينهما روابط منطقية، وهي تنتمي إلى أزمنة مجهولة وأماكن غير محددة إلا فيما ندر، حيث استعار "المسعدي" صحراء مكة لتسيير أحاديثه وليس الصحراء التونسية، يقول الراوي: "رأيت على وجه الكثيب المقابل من وجه الشروق شبحين، وكانا عاليا فكأنهما على صفحة السماء المبيضة، وقال لي صديقي، أنظر ولا تتكلم، وتبينت الشبحين، فتبين لي فتاة وفتى في زي آدم وحواء ممدودان إلى جنب متجهان إلى مطلع الشمس، وكانت على وشك البزوغ، فالمشرق كلهيب النار...ثم بدت من الشمس بوادر نور، فإذا الفتاة ارتمت وقامت وكأنها الظبية أحست بالنبل، وجعلت تهتم بالشرق فلا تخطو إلا خطوة ثم تتراجع وترسل يديها إلى السماء والشمس كأنها تروم أن تدركهما"[34].

وبالنزعة الفلسفية نفسها انطلق "المسعدي" يشيّد معمارية نصه "السّد" والتي تتضح فيه رؤيته الخاصة والخارجة عن المألوف، وتكشف لنا الرواية عن المناخ الصحراوي الذي يسيطر على الطبيعة الواقعة على تخوم الصحراء وموقف البشر المتعنت والغريب الرافض لبناء السّد ليطفئ لهيب المكان، هذا الموقف الواقع أيضا على تخوم الإمكانية وتخوم المستحيل لتغيير ملامح الصحراء.

ج ــ ليبيا: سطع نجم "إبراهيم الكوني" هذا المبدع المتفرد في سماء الرواية الليبية، وغدا الوريث الشرعي للموروث الثقافي العريق للصحراء الكبرى وقبائلها وخاصة قبائل الطوارق الذين اشتغل عليهم، والملاحظ أن الصحراء في جميع كتابات "الكوني" من "التبر" إلى"المجوس" إلى"نزيف الحجر" إلى"ديوان النثر البري" إلى"خريف الدرويش" إلى "أساطير الصحراء" ....إلخ، كلها تستحيل إلى فضاء عبقري موحي، فضاء أسطوري روحي "فأن تكتب للصحراء عند إبراهيم الكوني، معناه أن تحفر بعيدا أو عميقا بحثا عن مجالات أخرى مغايرة للكتابة بحثا في الكتابة عن تلك الواحة الموجودة المفقودة التي ما أنفكّ كتّاب كبار يبحثون عنها دون جدوى، وهو ما يقتضي طريقة جديدة في السرد والكتابة"[35].

ففي رواية "المجوس" ــ على سبيل المثال ــ يحتفي "الكوني" بالصراع القائم بين ظواهر الطبيعة في الصحراء خاصة بين المطر

الشحيح ورياح القبلي الحارة التي تكاد تقضي على كل معنى جميل للحياة تحاول أن تبثه الأمطار في هذا الموات، فقد ورد في الرواية: "وتروي العجائز أن الخصمين الأبديين قد قاما منذ قديم الزمان بتقاسم الصحراء، فأصبحت الصحراء الجنوبية منطقة نفوذ القبلي وفاز المطر بالحمادة الشمالية، ولم يخل الطرفان بالميثاق إلا في حالات نادرة، ما لبث أهل الخلاء أن حفروها في قلوبهم وأرّخوا بها حياتهم في الصحراء "(36).

خاتمة:

قال "الطيّب صالح" في روايته "موسم الهجرة إلى الشمال" متحدّثا عن الصحراء: "أرض لا تنبت إلا الأنبياء ...و الشعراء" ولكن الصحراء خذلت "الطيّب صالح" وحادت عن منطقه فقد أنبتت اليوم كتابا من خيرة المبدعين، فطنوا إلى هذا الفضاء الرحب الواسع الذي يمثل جغرافية خاصة تنعكس على الذات والواقع المعيش بكل ثقلها الأنثروبولوجي الخاص، والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، والثقافي ... لقد كتبوا فأبدعوا، فأجادوا، فأصابوا.

الإحالات و الهوامش:

1 شاكر النابلسي، مدار الصحراء، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – الدار البيضاء – المغرب،ط1،1990، ص21.
2 - فخري صالح، دراسات في الرواية العربية قبل نجيب محفوظ وبعده، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1،2010، ص12
3 - المرجع نفسه، ص 12
4 - شكري عزيز الماضي، أنماط الرواية العربية الجديدة، مجلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، سبتمبر 2008، ص16.
5 - المرجع نفسه، ص 16.
6 - صلاح صالح، الرواية العربية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 1996، ص 29.
7 - أمينة برانين، فضاء الصحراء في الرواية العربية - المجوس لإبراهيم الكوني أنموذجا - دار غيداء للنشر والتوزيع، دب، ط1، 2011، ص 16.
8 - حسين خمري، فضاء المتخيل، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 2001، ص 54.
9 - أمينة برانين، فضاء الصحراء في الرواية العربية، ص17.
10 - سعيد الغانمي، ملحمة الحدود القصوى، المخيال الصحرواي في أدب إبراهيم الكويتي، المركز الثقافي العربي، المملكة المغربية – الدار البيضاء -- ط1، 2000، ص 16.
11 - أمينة برانين، فضاء الصحراء في الرواية العربية، ص 18/17 .
12 - صلاح صالح، الرواية العربية والصحراء، ص 8/7 .
13 - عبد الرحمن منيف، الكاتب والمنفى، دار الفكر الجديد، بيروت، دط، 1992، ص361.
14 - نبيه القاسم، الفن الروائي عند عبد الرحمن منيف، دار الهدى للطباعة والنشر، الأردن، ط1 ،2005، ص42.
15 - إبراهيم عبد القادر المازني، إبراهيم الكاتب،الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، ط2، 1970، ص165.
16 - صلاح صالح، الرواية العربية والصحراء، ص 102.
17 - فتحي غانم، زينب والعرش، مكتبة روز اليوسف، القاهرة، ط1، دت، ص297 .

18 ـ ميرال الطحاوي، محرمات قبلية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ـ المغرب ـ ط1، 2008، ص 29.
19 ـ صلاح صالح، الرواية العربية والصحراء، ص 60/ 61.
20 ـ غسان كنفاني، الآثار الكاملة، م1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان - ط1، 1972، ص105 / 106.
21 ـ نبيه القاسم، الفن الروائي عند عبد الرحمن منيف، ص43.
22 ـ إبراهيم الخليل حارة البدو، دار التنوير، بيروت، ط1، 1980، ص 13.
23 ـ محمد حسن عبد الله، الريف في الرواية العربية،عالم المعرفة، الكويت، عدد 143، ص39
24 ـ صلاح صالح الرواية العربية والصحراء، ص 51.
25 ـ جبرا إبراهيم جبرا، البحث عن وليد مسعود، منشورات وتوزيع مكتبة الشرق الأوسط، بغداد، ط3، 1985، ص2
26 ـ المصدر نفسه، ص313.
27 ـ مؤنس الرزاز، متاهة الأعراب في ناطحات السراب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1986، ص286.
28 ـ نبيه القاسم، الفن الروائي عند عبد الرحمن منيف، ص43.
29 ـ ميرال الصحاوي، محرمات قبلية، ص29.
30 ـ حنان الشيخ، مسك الغزال، دار الآداب، بيروت، ط1، 1988، ص30.
31 ـ طه وادي، دراسات في نقد الرواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط،1989، ص66/67.
32 ـ عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 1976، ص190.
33 ـ أمينة برانين، فضاء الصحراء في الرواية العربية، ص19.
34 ـ محمود المسعدي، حدث أبو هريرة قال، دار الجنوب للنشر، تونس، ط3، 1989، ص52.
35 ـ حسن المودن، الرواية والتحليل النصي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص 68/ 69 .
36 ـ إبراهيم الكوني، المجوس، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان ـ ط2، 1992، ص14.